دراسة طوبونيمية لبعض القرى في منطقة تلمسان

نجراوي فاطيمة*

تمـــهيد:

يعد علم الطوبونيميا من العلوم التي ظهرت لأول مرة في فرنسا في القرن التاسع عشر، ويعرّفه شارل روستينغ (Charles Rostaing) أنه البحث في معنى و أصل أسماء الأماكن، كما يدرس التحولات والتطورات التي مرت بها.[1]

وأما كلمة 'طوبونيميا' فهي مشتقة من الكلمة الاغريقية " طبو " "topos " اي" مكان" و "اونوما" "onuma " التي تعني "اسم" اي "اسم مكان".[2]

إن الغرض من الدراسة الطوبونيمية هو التعرف على أصل تسمية مكان ما؛ فبدون التسمية يكون الإنسان مضطرا في كل مرة إلى وصف المكان بميزاته والطابع الغالب عليه. وتكون هذه التسمية مرتبطة أساسا إما مع جغرافية المكان، وإما مع نوع النبات أو الحيوان الذي يكثر تواجده بذلك المكان، وإما مع أسامي تربط الشعوب بأراضيهم من قبائل أو عائلات أو حتى أسماء لأولياء صالحين انتقل اسمهم إلى ذلك المكان.[3] وقد قمنا في هذا البحث باختيار أسماء لبعض قرى منطقة تلمسان كنموذج وأخضعناها للدراسة الطوبونيمية.

أ. أسماء الاماكن التي لها علاقة بالتضاريس (Oronymes)

عرفت الشعوب البربرية منذ القدم غزوات عليها من شعوب متتابعة كالرّومان والوندال والبيزنطيين، فكان البربر يلجئون إلى الأماكن الوعرة وصعبة المسلك كالجبال، كما كانوا يقومون بالزراعة في تلك الجبال بدلا من السهول، فأصلحوا الجبال وأعدّوها للسكن وفلاحة أراضيها بالرغم من أن الأراضي السطحية والشاسعة تعتبر أكثر صلاحية للفلاحة ولكن لم يكن بوسعهم استغلالها للسبب الذي ذكرناه أعلاه.[4]

كان من الضروري تقسيم الأراضي وتعديلها بإحكام، فالأغراض الوقائية وتقسيط الأراضي كانا داعيان رئيسيان في تفسيرنا اليوم سبب تجزئة البربر للأماكن المأهولة. كما أن التعداد الكبير للجبال والتلال والخنق والممرات الضيقة كان لها أثر كبير في إعطاء طوبونيمات لتلك الأماكن[5].

* أستاذة، تلمسان . nedjraouifz@gmail.com

1) قرية تجموت:

تقع قرية "تجموت" tadjemmut جنوب بلدية عين تالوت وتبعد عنها بحوالي 38 كلم. كانت تسمى القرية من قبل" قلتة البيضا"، "gueltat el beida " وحسب المصادر المحلية أعطي لها هذا الاسم لأنه حين سقوط الأمطار تتجمع المياه كلها في حفرة وسط القرية تسمى "قلتة""gueltat" بمعني بركة[6].

ثم أخذت القرية في الثمانيات تسمية أخرى وهى تجموت "Tadjemmut". وحسب ما ذكره الكاتب روبار أسبنيون" Robert Aspignon " أن تجموت " Tadjemmut" جمع تِقوما "tigwmma " وهي كلمة أمازيغية بمعنى خليج "Baie"[7]. ويضيف أن كلمة تجموت في الأصل تنطق تقموت "tagemmut " غير أن " g" صعبة في النطق لذلك استبدلت بالجيم ليسهل نطقها.

وفي الحقيقة هذه التسمية تطابق تماما جغرافية المكان؛ شموخ الجبال والبركة المائية التي تحجر في الأسفل تعطى طابع وكأنه خليج "golfe" "littoral".

2) قرية تاغزوت:

تقع قرية تغزوت جنوب بلدية عين تالوت وتبعد عنها بحوالي 3 كلم. وهي منطقة سطحية صغيرة تمتاز بخصبة تربتها، ويعبرها وادي يسمى" واد خلوفي". "تغزوت" كلمة أمازيغية بمعنى حقول وأراضي فلاحية خصبة تقع في حافة واد، وبهذه الأراضي رواسب الطين التي يتركها الوادي.[8]

3) قرية المضيق:

تقع قرية "المضيق" جنوب بلدية شتوان وتبعد عنها بحوالي 7 كلم. وهي قرية صغيرة تقع على جبل صغير يتميز بمسلكه الصعب والوعر وممراته الضيقة، وفيها قلة من المنازل والسكان.

"المضيق" كلمة عربية من الضِّيق: نقيض السّعة، أصبحت تنطق "لَمْضِيـ**ڤ**" وذلك بعد حذف الهمزة المقرونة بلام التعريف لأن الهمزة من أصعب الأصوات نطقا. وكما يذكر ابراهيم أنيس أن اللهجات العربية تميل دائما إلى تخفيف الهمزة وتفر من نطقها محققة لما تحتاج إليه من جهد عضلي[9]. ثم استبدل صوت القاف المهموس بنظيره المجهور وهي القاف /g/وذلك بتأثير الضاد المجهورة. وعليه فتسمية المكان لها علاقة بتضاريس المنطقة.

4) قرية الخنق:

تقع قرية "الخنق" جنوب بلدية ولاد ميمون وتبعد عنها بحوالي 8 كلم. و"الخنق" كلمة عربية أصبحت تنطق في الدارجة "لخنڤ". فقد حذفت الهمزة في بداية الكلمة لثقلها على اللسان، ثم استبدلت القاف المهموسة بنظيرتها المجهورة /g/ وذلك بتأثير النون المجهورة[10]

وقد ذكر الباحثان فريد بن رمضان وابراهيم عطوى في دراستهما لـ "الخنق" défilé بالفرنسية، أن معناها: عنق جبل "une gorge de montagne "، أو ممر ضيق " un passage étranglé"[11]. وما لاحظناه في الدراسة الميدانية أن تضاريس الجبال متناسبة مع التسمية.

5) قرية الكدية:

تقع الكدية في شمال غرب بلدية تلمسان وتبعد عنها بحوالي 3 كلم. والكدية حي قديم قد كان آهلا بالسكان أثناء الاحتلال الفرنسي لكونه مناسبا للعائلات الريفية التي كانت تعتمد على الرعي والفلاحة.

وهذه القرية مبنية على صخرة كبيرة وصلبة والتي تعني في العربية "كدية" من الفعل كدا: كَدَت الأرض، تَكْدُوا كَدْوًا وكُدُوًا. الكُدْيَة: الأرض المرتفعة، وقيل: هو شيء صُلب من الحجارة والطين. والكُدْيَة: الأرض الغليظة، وقيل: الأرض الصلبة، وجمعها كُدى. ويقال للحافر إذا بلغ إلى حجر لا يمكنه معه الحفر قد بلغ الكدية[12]. فإذن تسمية هذا المكان تتطابق مع تضاريس المنطقة.

ب. أسماء الاماكن التي لها علاقة بالنبات Phytonymes

يرى بلقران Pellegrin أنّ سبب تسمية الأماكن بأسماء النباتات في الطوبونيميا مردّه الى أنّ الرّعاة والبدو هم الذين أطلقوا هذه التسميات على تلك المناطق إذا توفر وكثر بها نبات أو شجر معين يكون امّا منعزل في الطبيعة كأشجار الخرّوب مثلا أو الأشجار المثمرة كأشجار التين التي تمثل قيمة غذائية وتظلّ راسخة في الذّاكرة[13]. وعليه قد وفّرت أسماء النّباتات والأشجار العديد من الطوبونيمات في شمال إفريقيا. ويلاحظ أنّ الطوبونيمات التي تدل على أسماء الحبوب: كالقمح والشّعير مثلا جدّ قليلة او شبه منعدمة عكس الأشجار التّي تعدّ جزءا من الطبيعة الإفريقيّة منذ القدم، كأشجار الزيتون والنّخيل.[14]

1) قرية تفرست:

تقع قرية "تفرست" شمال بلديّة السّواحلية وتبعد عنها بحوالي 5كلم. وهي قرية قديمة كثيرة المزارع، وسكّانها قليلون يعتمدون في عيشهم على تربيّة المواشي والفلاحة ومن غلاّتهم الحبوب وخاصّة الإجاص.[15]

سميّت القرية "تفرست" "Tiferest" نسبة إلى شجر الإجاص الذي تشتهر بزراعته هذه المنطقة، ويرجح ان "تفرست" كلمة أمازيغية بمعنى شجر الإجاص: Le poirier[16]

2) قرية نخلة:

تقع قرية "نخلة" في جنوب بلدية السّواحلية وتبعد عنها بحوالي 7كلم.

لقرية "نخلة" رغم صغرها تاريخ مجيد يتخلّد في ذكرى للأمير عبد القادر، إذ ذكر لنا الكاتب محمّد حمدون أنّه بالقرب من ضريح سيدي براهيم والنّصب التذكاري لمونطاياناك Montagnac يتواجد ضريح سيدي طاهر؛ أين استسلم الأمير عبد القادر في تاريخ 23 ديسمبر 1847 للجنرال الفرنسي لامورسيار Lamoriciére في الموقع المعلوم "بالنّخلة" وسمّيت حينها "نخلة الأمير عبد القادر"[17].

3) قرية تغانيمت:

تبعد قرية تغانيمت عن قرية عين الحوت بحوالي 1كلم في الجهة الشّمالية وأراضيها خصبة وبها بساتين كثيرة. وكان نمط العيش فيها فلاحي ورعوي ولكنها اليوم أصبحت قرية غير مأهولة[18].

ذكر الكاتب إيميل جاني Emile Janier أنّ سكّان القرية ينطقون تغاليمت باللاّم، وجاءت في خارطة للظّابط العسكري تغانيمت بالنّون[19]. ومن خلال اعتمادنا على القاموس أمازيغي – فرنسي، وجدنا أن الكتابة الأصحّ هي بالنّون وليس باللاّم، والكلمة أصلها بربري غنيم ghanim بمعنى قصب roseaux.[20] وعليه أخذت القرية منذ القدم هذه التّسمية نسبة للقصب الذي ينبت فيها.

4) قرية طاقا (Taga)

تقع هذه القرية جنوب بلدية بني سنوس، أما كلمة طاقا فهي أمازيغية الاصل تعني نبات العرعر في اللّغة العربية وباللّغة الفرنسية Génevrier cade[21]. و يذكر بلقران أنّ هذا النبات يستخلص

منه زيت يسمّى زيت القطران وجاءت كتابة هذا الطوبونيم بعدة صيغ هي كالتّالي: Taggaطاقا، Taqa طاكا، Tega طيقا، طيكي،الخ ومنه أعطيت طوبونيمات عديدة مثل عين طاقا، عين طايا، بوطاكا.[22]

ت. أسماء الاماكن التي لها علاقة بالحيوان (Zoonymes / Zootoponymes)

لقد وفرت الكائنات الحيوانية وخاصّة الوحشية منها عددا كبيرا من الطوبونيمات بشمال إفريقيا.[22]

أولى البربر أهمية كبيرة للحيوانات التي كانت تعيش في البادية باعتبارها مصدر عيشهم الأساسي، وهي توفر جزءا من قوتهم كاللّحم والمواد اللبنية. كما استغلّوا الصوف والجلد لصناعة الملابس والأحذية والأغطية والخيام، والأدوات المنزلية مثل: قوقعة بيض النعامة التي استعملت كوعاء، ورقاب الجمال كزهريات...إلخ. زيادة على استعمالهم للحيوانات في خدمتهم كوسيلة للتنقل في الأماكن الوعرة المسالك.[23] وربما مارست حتى التجارة بالحيوان فكان له دور هام ونشأت علاقة وألفة حميمة بين الشعوب البدائية والحيوان انطلاقا من المؤسسة الطوطمية[24] التي كانت تسود نظام القبلية التي تنتمي إليها.[25]

1) قرية تيلفت:

تقع قرية تيلفت في شمال بلدية صبرة وتبعد عنها بحوالي 12 كلم. و"تيلفت" Tileft كلمة أمازيغية بمعنى " أنثى الخنزير". تستعمل العديد من اللهجات الأمازيغية – ما عدا لهجة التوارق*– كلمة "إلف" Illef بمعنى الخنزير Sanglier, porc وجاءت في صفة المذكر، و"تيلفت" Tileft بمعنى أنثى الخنزير (laie truie). وكل هذه الكلمات هي مستعملة في لهجة (المغرب الأوسط ، الشلوح، القبائل والشاوية) . وأما لهجة الريف بالمغرب الاقصى Le rifain فتستعمل "إلف Illef وإرف Iref وتيلفت Tileft، وترفت Tireft بمعنى" الخنزير".[26]

ويذكر أن هذا الاسم "إلف" Ilef له علاقة مع اسم الفيل "إلو" Elu والمؤنث "تلوت" Telut. ونشير إلى أنه يوجد منطقة قريبة من مدينة تلمسان تدعى "عين تالوت " فلربما أخذت هذا الاسم نسبة إلى وجود فيلة بتلك المنطقة في الماضي. فقد ذكر العديد من الكتاب القدماء مثل حانون Hannon الجوّال القرطاجي المشهور، وهيرودت Herodote الجغرافي اليوناني أن القرطاجيين استعملوا الفيلة كحيوانات للقتال، وأخذوهم معهم لسيسيليا خلال الحرب البونية الأولى ثم إلى اسبانيا.[27] وبعد انقراض الفيل في نهاية الفترة الرومانية بقيت بصماته كطوبونيم.

والجدير بالذكر أنه في الأمازيغية الحالية يقصد بكلمة إلف Ilef الخنزير «Sanglier» ولكنها كانت فيما قبل تطلق على الفيل ولكونه انقرض فأُعطي اسمه للخنزير. وكان في عهد الرومان تكتب كلمة " Ilef " التي تعني الفيل بـ إيلب " Ilep " (لأن« F » في اللغة الأمازيغية تكتب « P » باللغة اللاتينية).[28] فنستنتج من ذلك أن الكلمة اللاتينية elephantaria التي أصبحت في الفرنسية éléphant والإنجليزية elephant أصلها من اللغة الأمازيغية.

حاولنا إيجاد كلمة حلوف في لسان العرب، غير أنه لم يوجد لها أثر ، أو مرادف لكلمة خنزير، فنستنتج أن كلمة حلوف المستعملة في الدارجة مصدرها الأمازيغية من الجدر "إلَفْ".

إن كلمتي "حلوف" و "إلف" تطلقان دائما على الخنزير وتستعملان كأسماء أماكن لـ عيون أو وديان أو وجبال مثل: واد الحلّوف بمدينة عين تموشنت، ومنطقة إغيل إلف Ighil Ilef بالقبائل، و جبل "بو إلف" Djbel bou ilef بالأوراس.

2) قرية بوفكارن

تقع هذه القرية في وسط بلدية مرسى بن مهيدي. أصل الكلمة "فكارن" أمازيغي ومعناها حيوان "السلحفاة" وهي من "إفكران" Ifekran جمع إفكر"Ifker".[29] وأما كلمة "بو" العربية فتحيل إلى المكان.

3) قرية بولفراد

هذه القرية التابعة لبلدية سبع الشيوخ التي تبعد عن مدينة تلمسان ب50 كلم.

يبدو أصل هذه الكلمة من العامّية، وتعود إلى حيوان يدعى "الفرد" وهو حيوان الثّور، ويدعى كطلك حيوان البقر وهو من الثدييات المجترّة، فمؤنّثه البقرة وصغيرهما العجل، حيوان مقدّس عند الهندوس ومذكور في الدّيانات السماوية.[30]

كما جاءت هذه الكلمة إفرد Iferd عند الكاتب Laoust أنّها صفة التّصغير لكلمة تيفرت الامازيغية Tifert بمعنى حوض بحيرة صغيرة اصطناعية، حوض قائم في أسفل منحدر تملأه مياه الأمطار عند سقوطها.[31] غير أنّ الكاتب فضيل شريقان يؤكّد أنّ هناك اعتقاد خاطئ عند الناس بين هذه الكلمة أَفَرْدْ جمع أَفْرْدان والتي أصلها من اللّغة الأمازيغية مع الكلمة باللّغة العربية وهي حيوان الثّور الذي يدعى في العامّية "الفَرْدْ".[32]

4) قرية زوج بغال

تقع هذه القرية في جنوب بلدية مغنية وهذه التسمية مركّبة من كلمتين، فالأولى هي "زوج" تتداول في اللّهجة وتعني الرّقم "اثنان"، والكلمة الثانية من العربية الفصحى وتدل على حيوان "البغل" فالبغل معروف وهو المولّد بين الحمار والفرس (ج بغال).[33]

غير أنّ الكاتب ألفراد بال يذكر لنا الكلمة الأولى "زوج" أنّ أصلها اللّغة اللاّتينية، جوجم Jugum وترجمت إلى Arpent أي مساحة أرض لكن هنا معناها عربية، فالمعنى هو مساحة أرض التي يمكن لدابّتين مربوطتين بنفس العربة حرثها.[34]

خاتمة:

وفي الأخير أفضت بنا هذه الدراسة لأسماء بعض قرى منطقة تلمسان إلى استنتاج مفاده أن تعاقب مختلف الحضارات ولّد أسماء أماكن أصبحت شاهدة على اللغة التي سادت آنذاك. كما قد ذكر العديد من الباحثين وعلماء النفس أنّ الشعوب البدائية توصلوا إلى تسمية أنفسهم وقبائلهم بأسماء الجماد أو النبات أو الحيوان الذي كان يحظى بالاحترام، ووصل إلى حد التبجيل لأنّها كانت تعيش في الأصل من نبات أو حيوان معين.

الهوامش:

1 -Charles Rostaing, les noms de lieux, Presse universitaire de France, Paris, 1945, p05.

2 -Atoui Brahim, toponymie et espace en Algérie, institut national de cartographie, Alger, 2005, p33.

3- هذه المعلومة مأخوذة بناء على شهادة سيد من اهالي المنطقة ذو مستوى جامعي عمره 51سنة..

4-Foudil Cheriguen-Toponymie algérienne des lieux habités p129.

5-Robert Aspignon –Apprenons le berbère p.14

6-Farid Benramdane Et Brahim Atoui, Nomination Et Denomination . p176.

7- إبراهيم أنيس –الأصوات اللغوية، ص 85.

8-سبوية، الكتاب، ج4، ص 434.

9-Farid Benramdane – Brahim Atoui Nomination Et Denomination Edition Crasc Oran ,p146.

10-ابن منظور لسان العرب – المجلد الأول، مادة "كدا" ص 511.

11-A.Pellegrin, Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie p168.
12-Ibid, p168.
13-هذه المعلومة مأخوذة بناء على شهادة أحد أهالي القرية ذو مستوى جامعي عمره 45 سنة..
14- www.bladi.net/forum/76598-richesse tamazighte
15-Mohammed Hamdoun – Ghazaouet – Nemours – L'harmattan Barnéoud 2001، p61.
16-Emile Janier, Le Bulletin Des Amis Du Vieux Tlemcen p72.
17-Ibid, p 71
18-http://www.TAWALT.com/pdf/TAMTAF.pdf
19-Ibid, p230
20-A.Pellegrin-Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie p89.
21-A.Pellegrin Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie, p80.
22-http:www.bladi.net/forum/76598-richesse tamazighte
23-Encyclopédie Encarta 2007
24-Farid Benramdane-Brahim Atoui Nomination et Dénomination, p60.
25-www.bladi.net/forum/76598-richesse tamazighte
26-Ibid.
27-A.Pellegrin Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie, p85.
28-Foudil Cherigen-Dictionnaire d'hydronymie générale de l'Afrique du nord (Algérie-Maroc-Tunisie) p .
29-أنطوان الهاشم-موسوعة لاروس-النبات والحيوان-ص59.
30-Emile Laoust-Contribution à une étude de la toponymie du haut Atlas p60.
31-Foudil Cherigen-Dictionnaire d'hydronymie générale de l'Afrique du nord (Algérie-Maroc-Tunisie) p .
32-محمد مرتضى الحسيني الزبيدي-تاج العروس من جواهر القاموس-دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع-2011 المجلّد رقم1-مادّة"بغل" ص640.
33-Alfred Bel-Bulletin de la société des amis du vieux Tlemcen-imp-des beaux art 1956 p25.